العلاقة بين الإخوان والسلفيين.. أسباب التباعد واحتمالات التقارب

أحمد فهمي

باحث في الشئون السياسية

ملخص الدراسة

على الرغم من ظاهرة التمدد الإســـلامي، أو ما يُعبَّر عنه بـ«الصحوة» التي تعيشها وتشهدها المجتمعات الإســـلامية، وحتى الغربية -بالنظر إلى انتشار الجاليات الإسلامية في الغرب-، إلا أن التيارات الإسلامية تمـــر بحالة من العداء «البينـــي» المركَّز؛ وذلك نتيجة توحّد جهود أطراف دوليـــة ومحلية لمواجهة الظاهرة الإسلامية المتنامية. وهو ما أثَّر بدوره على الأداء الإسلامي بصورة عامة.

حيث استغل خصوم الإسلاميين تعدُّد الاتجاهات والجماعات داخل بنية العمل الإسلامي لتنفيذ مخططهم لوأد ظاهرة الصحوة الإســـلامية، عبر اتباع سياســـة «الإجهاض التبادلي» في مواجهة «الخطر» الإسلامي، هروبًا من التورط في حرب عامة ضد قطاعات واســـعة داخل المجتمعات المســـلمة في وقت واحد، وشملت هذه السياسة الاتجاهات الثلاثة الرئيسة في العمل الإسلامي: العلمي، السياسي، الجهادي.

ويمكن القول: إن التيارات العلمية والسياسية- أي السلفيين والإخوان بصفة عامة- يشكِّلون الكتلة الرئيسة داخل العمل الإســـلامي، إلا أن تاريخ التنافس والخصومة بين هذين التيارين -الإخوان والسلفيين- قد قلل من قوتهما الجمعية التأثيرية في المجتمع، فكان من السهل على خصومهما إخضاعهما لسياسة «الإجهاض التبادلي» بكفاءة؛ وذلك من خلال القيام بـ«تسكين» أو «تحييد» أحد التيارين تفرغًا للآخر، وصولاً إلى الدفع بأحدهما كأداة للمشاركة في حصار الطرف الآخر.

وعلى الرغم مما سبق فإن الواقع الإسلامي يقدم نماذج مشرقة لتيارات من الصحوة في بعض دول الخليج ومصـــر؛ باعتبارها نموذجًـــا راقيًا في التعامل مع الجماعات المخالفة لها في الـــرأي والاجتهاد، بعيدًا عن التعصب؛ حيث نجحت في تحقيق مســـتويات مقبولة -وإن لم تكن المنشودة- من تخفيف حدة التأزم البيني بـــين أبناء الأمة الواحدة، ومن ثَم فإن هذه النماذج قابلة للاقتداء بها، وتحتاج إلى تفعيل تجاربها على كافة المستويات لتجميع جهود الأمة ومواجهة استراتيجيات ومخاطر «التفتيت».

لذا؛ فإنه ينبغي على التيارين الإســـلاميين الكبيرين أن يوقفا كافة الحملات الإعلامية الصراعية بينهما، وأن يتم اســـتبدالها بوسائل وقنوات راشـــدة لتبادل الخبرات، والاضطلاع بوضع آليات لاحتواء الخلافات الميدانية، وتأسيس لجان متخصصة لمتابعتها، وحل الإشكالات الناجمة عنها، مع الاتفاق على مرجعية تحكيم للفصل في النزاعات المشتركة، تضم علماء ودعاة من الطرفين مشهود لهم بالاعتدال والإنصاف.

العلاقة بين الإخوان والسلفيين.. أسباب التباعد واحتمالات التقارب

أحمد فهمي

باحث في الشئون السياسية

مقدمة:

بعد ما يقرب من أربعين عامًا من انطلاق مسيرة العمل الإسلامي المعاصر، لم يعد خافيًا أن التيارات الإسلامية أصبحت طرفًا رئيسًا ومؤثرًا في مجريات الأحداث في غالبية الدول العربية، فالساحة الدينية يعلو فيها الخطاب الديني للإسلاميين، والساحة السياسية تمخضت عن صراعات تدور بالأساس لمنع التيارات الإسلامية من تحقيق مكاسب تتجاوز الخطوط الحمراء.

لكن رغم التمدد الإسلامي -أو بسببه- فإن التيارات الإسلامية تواجه منذ سنوات حالة من العداء المركَّز؛ نتيجة توحّد جهود أطراف دولية ومحلية لمواجهة الظاهرة الإسلامية المتنامية، وهو ما أثَّر بدوره على الأداء الإسلامي بصورة عامة، وصار لزامًا على الإسلاميين أن يجمعوا بين عدد من المتناقضات التي أفرزها الواقع المعقد: بين النشاط والسكون، بين التمدد والانكماش، بين الانطلاق والحذر، بين المشاركة والانعزال.. إلخ.

ونتيجة لتعدد الاتجاهات والجماعات داخل بنية العمل الإسلامي، لجأ خصوم الإسلاميين إلى اتباع سياسة «الإجهاض التبادلي» كأحد وسائل مواجهة «الخطر» الإسلامي، هروبًا من التورط في حرب عامة ضد قطاعات واسعة داخل المجتمع في وقت واحد، وشملت هذه السياسة الاتجاهات الثلاثة الرئيسة في العمل الإسلامي: العلمي، السياسي، الجهادي.

تمثل التيارات العلمية والسياسية- أي السلفيين والإخوان بصفة عامة- الكتلة الرئيسة داخل العمل الإسلامي؛ إذ تصل التقديرات حول عدد المنتمين إلى جماعة الإخوان المسلمين في مصر إلى نحو نصف مليون عضو، وأكثر من مثلهم من المحبين والمتعاطفين[1]، ومع إضافة المنتمين والمؤيدين للتيارات السلفية، فإن العدد لن يقل عن مليوني شخص.

وفي دول الخليج رغم ندرة المعلومات الإحصائية، إلا أنه من خلال تتبع أرقام توزيع المطبوعات الفكرية ومؤشرات أخرى، فإن عدد المنتمين والمتأثرين والمتعاطفين مع التيار الإسلامي لن يقل عن مليون شخص.

إلا أنه بالنظر إلى تاريخ التنافس والخصومة بين تياري الإخوان والسلفيين، فإن هذه الأرقام فقدت قوتها الجمعية التأثيرية، فكان من السهل على خصومهما إخضاعهما لسياسة «الإجهاض التبادلي» بكفاءة؛ حيث يتم تسكين أحد التيارين تفرغًا للآخر، وأحيانًا كان يتم دفع أحدهما للمشاركة في حصار الطرف الآخر.

(١) حسام تمام، تحولات الإخوان المسلمين.. تفكك الأيديولوجيا ونهاية التنظيم، القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٦م، ص ٩.

هذه الآثار السلبية للتعدد داخل بنية العمل الإسلامي دفعت بعض المفكرين إلى طرح تساؤلات حول ما إذا كان هذا التعدد يمثل ظاهرة إيجابية في المنظور العام؛ كونه يرسِّخ تكاملاً وشمولاً للحركة الإسلامية، أم أنه ظاهرة سلبية في المطلق، لم يجنِ منه العمل الإسلامي إلا المفاسد؟

نلحظ في هذا الصدد ثلاثة اتجاهات:

أولها: ينظر إلى التعدد على أنه سلبي بالمطلق، ولم ينتج عنه إلا المفاسد، وأن الأصلح للأمة أن يكون هناك تيار إسلامي واحد.

ثانيها: يرى أن التعدد إيجابي بالمطلق، وأنه أفاد العمل الإسلامي كثيرًا في تجنب جهود التصفية، وأن الخلافات البينية هي خسائر مقبولة في معركة إعادة الإسلام.

ثالثها: أن التعدد يتضمن جوانب إيجابية وأخرى سلبية، وأنه يجب التعامل معه كحقيقة واقعة نُقِرّ بها، ولا نرفضها، مع وجوب العمل على تلافي آثارها السلبية، وفي مقدمتها العداء والخصومة بين فصائل العمل الإسلامي.

هذه الدراسة تنطلق من الاتجاه الثالث لتناقش وتحلل العلاقة بين الإخوان والسلفيين من خلال محورين: أسباب التباعد- احتمالات التقارب وصولاً إلى تنقية التعدد من آثاره السلبية.

ما هي أسباب الاختلاف بين التيارين؟

من خلال النظر في واقع العلاقة والتجارب المباشرة والأدبيات المنشورة ورقيًّا وإلكترونيًّا، فإنه يمكن تقسيم عوامل التباعد والخلاف إلى خمس مجموعات متجانسة **نعرضها فيما يلي:**

١- المآخذ الشرعية:

يتركز انتقاد السلفيين لجماعة الإخوان المسلمين في الجانب العلمي أكثر من غيره من العوامل الأخرى، ويمكن حصر المآخذ الشرعية للسلفيين في هذه «العناوين»:

التحزب وتكوين الجماعات التي تفرِّق المسلمين – البيعة – التلبس بنزعات صوفية بدءًا بالمؤسس الشيخ حسن البنا (رحمه الله) – قلة الاعتناء بالعلوم الشرعية- ترك الدعوة إلى نبذ الشرك ومظاهره في المجتمع- ضعف الولاء والبراء، خاصة تجاه الأقليات مثل النصارى والشيعة- الاستهانة بالسنن- التميع في الفتوى، – إقرار الأحكام الشرعية على غير وجهها الصحيح.

ويمكن ملاحظة أن منتقدي الإخوان ليسوا –فقط- من آحاد السلفيين في واقع الأمر، بل منهم بعض كبار العلماء والرموز الدينية في الأمة من أمثال الشيوخ: ابن باز وابن عثيمين، والألباني، رحمة الله عليهم جميعًا.

لكن لا تتفق كل التيارات السلفية في مستوى انتقادها العلمي للإخوان، بمعنى: ليست كل الانتقادات العلمية للإخوان مجمعًا عليها من قِبَل جميع التيارات السلفية، وبالتالي يختلف موقف كل منها من الإخوان قربًا وبعدًا؛ بحيث إن البعض يبدِّع الإخوان، والبعض الآخر ينادي بالتنسيق معهم، وتصل الانتقادات العلمية من بعض السلفيين للإخوان حد وصفهم بأنهم من الفرق الضالة، أي من الثنتين وسبعين فرقة التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه، كما قال بعض العلماء بأنهم ليسوا من أهل السنة؛ لأنهم يحاربون السنة.

وعلى الرغم من أن طائفة كبيرة من السلفيين تتفق على قائمة طويلة بمخالفات الإخوان الشرعية، لكن يختلف هؤلاء السلفيون فيما بينهم حول طرق التعبير عن هذا النقد، فمنهم من يعلنها عداوة وخصومة بلا هوادة، ومنهم من يعرضها في سياقها العلمي العام، ومنهم من يتجنب الحديث عنها في الملأ ووسائل الإعلام.

ويبقى أن المنحنى العام للإخوان فيما يتعلق بالانضباط الشرعي من المنظور السلفي هو في هبوط. يقول الدكتور ياسر برهامي – وهو من الرموز

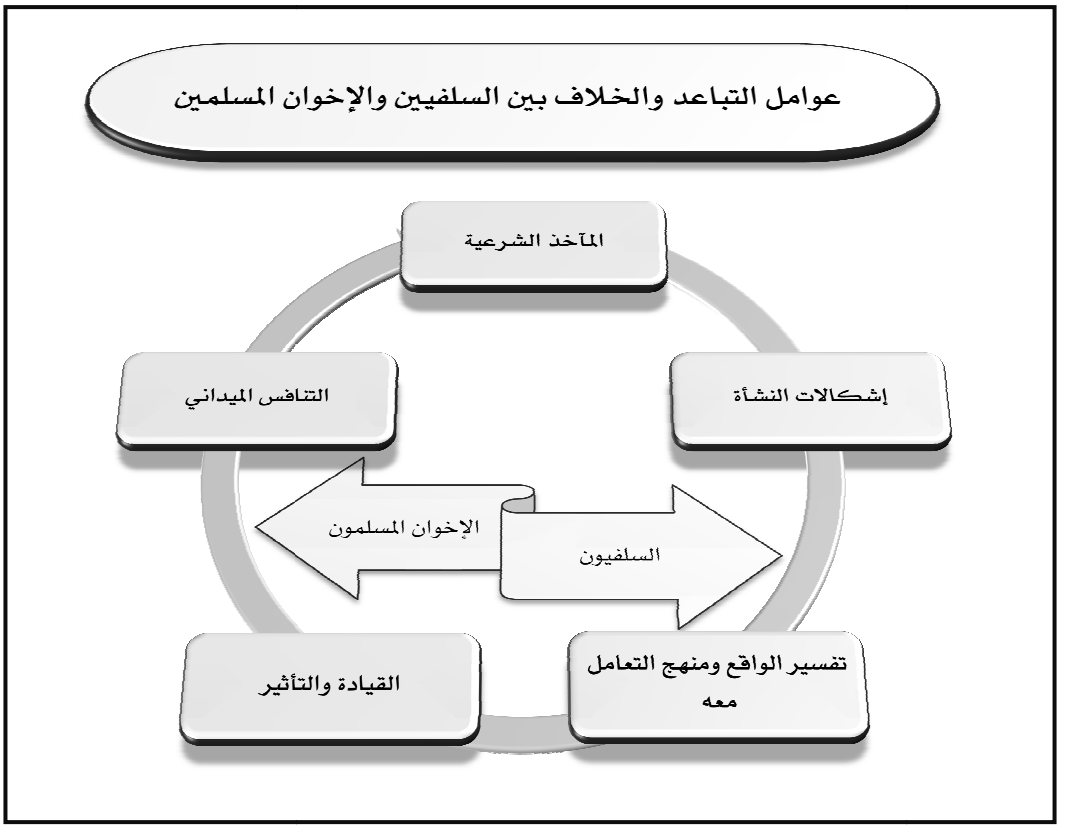

السلفية البارزة في مصر- عن منهج الإخوان قديمًا: «كان المنهج فيه قرب كبير، أو فيه روافد كثيرة من المنهج السلفي، ولم يكن منهج الإخوان في ذلك الوقت به هذا القدر الكبير من التميع الحالي، لقد وُجدت داخل الإخوان توجهات سلفية قوية متأثرة بجهود الشيخ محمد رشيد رضا، الذي كان أستاذًا للشيخ حسن البنا، وكذا جهود الشيخ حامد الفقي والشيخ محب الدين الخطيب اللذين يعدان من قرناء الشيخ البنا، رحمهم الله جميعًا».[1]

٢- إشكالات النشأة:

تثير النشأة ثلاثة إشكالات تفاقم من النفور بين الإخوان المسلمين والسلفيين:

الإشكالية الأولى: ينطلق الإخوان في حراكهم الإسلامي بوصفهم الجماعة الأم، التي انبثقت منها غالبية الجماعات الإسلامية لاحقًا؛ كونها تأسست في مصر في عام ١٩٢٨م عقب سقوط الخلافة مباشرة، وهي في نظر الكثيرين أول ردة فعل قوية من الأمة على سقوط الخلافة.

لكن من وجهة النظر السلفية فإن غالبية التيارات السلفية ترتبط في نشأتها -وإن معنويًّا- بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية التي سبقت دعوة الإخوان بعدة قرون، وتمكنت من إقامة دولة إسلامية على الكتاب والسنة، وهو ذروة ما تهدف إلى تحقيقه كافة الحركات الإسلامية المعاصرة، وهي بذلك قدمت تجربة ثرية للأمة بأسرها استفادت منها حركة الإخوان المسلمين نفسها، كما أصبحت منبرًا يقتبس منه السلفيون.

يقول الدكتور ياسر برهامي: «كان لقاء المشايخ ابن باز وابن عثيمين، وابن قعود والجزائري، وعبد الرزاق عفيفي من أكثر المؤثرات في توضيح معالم المنهج بعد

(١) الدكتور ياسر برهامي: «في شهادته عن نشأة الدعوة السلفية في الإسكندرية»، على موقع إسلاميون. إسلام أون لاين، ج١، على هذا الرابط:
http://islamyoon.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1252188116278&pagename=Islamyoun%2FIYALayout&ref=body&ref=body

شيخ الإســـلام ابن تيمية، ومدرسة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله تعالى».[1]

وقد ألَّف الشـــيخ محمد بن إسماعيل المقدم -وهو من علماء الســـلفية المعروفين في مصر- كتابًا بعنوان «خواطر حول الوهابية»، يكشـــف حجم تأثر الحركة الإســـلامية في مصر بدعوة الشـــيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى.

وبالتالي فإن الدعوة السلفية لها قدم السبق وشرف المبادرة إلى تغيير واقع الأمة الإسلامية، كما أن تأثيرها الشرعي والفكري امتد ليشمل دولاً عديدة في أنحاء العالم منذ نشأتها وحتى الآن، وتأسيسًا على ذلك فلا يحق للإخوان أن يقدموا أنفســـهم بوصفهم الجماعة الأم للحركات الإسلامية.

الإشكالية الثانية للنشأة: تعود إلى مرحلة السبعينيات من القرن العشـــرين الميـــلادي، عندما عادت الحركة الإسلامية من جديد للانبعاث بعد أفول نجم القومية العربية، وفيما عرف لاحقًا بـ«الصحوة الإسلامية».

في بداية تلك الحقبة بمصر، كانت الجامعات تموج بالنشاط الدعوي للجماعة الإسلامية التي كانت ذات طابع ســـلفي عام، وكان القـــادة التاريخيون للإخوان يخرجـــون من المعتقـــلات تباعًا؛ حيث اكتشـــفوا أن الجماعة لم يعد لها قاعدة جماهيرية وسط التجمعات الطلابية بتأثير سنوات الاعتقال الطويلة لقادة الحركة ونشطائها، ولم يكن أمامهم والحال هكذا سوى خيارين لا ثالث لهما: إما اللجوء إلى الطريق الطويل والشـــاق بتكوين قاعدة مســـتقلة للجماعة من شرائح المجتمع المختلفـــة، وإما اختراق الجماعة الإســـلامية القائمة بالفعل، وتحويل أتباعها إلـــى اعتناق منهج الإخوان، وقد وُضِع الخيار الثاني موضع التنفيذ.

يقدم الدكتور ياسر برهامي الرواية السلفية لما جرى في هذه الحقبة فيقول: «خرج الإخوان المســـلمون من الســـجون والجماعة الإســـلامية موجودة على أرض الواقع بمنهجها الســـلفي النقي، وفي بداية الأمر لم يحاول الإخوان إظهار كبير فرق، وكانوا مثلاً يحافظون على الهـــدي الظاهر، ولم يتعرضوا للكتب الســـلفية التي ندرســـها، وظل الأمر على ما هو عليه من دعوة الجماعة الإسلامية المتميزة بمنهج سلفي واضح جدًّا مع الاستفادة بالطاقة الحركية الموجودة عند الإخوان، وتمت معسكرات صيفية سنة ٧٧، ٧٨، ٧٩ كلها كانت ذات منهـــج ســـلفي، كان يوزع فيها كتـــاب (الأصول العلمية للدعوة الســـلفية)، وكان يـــدرس فيها كتاب (تطهير الجنان والأركان عن درن الشـــرك والكفران)، كلها كانت صبغة سلفية في جميع الأشياء..

بدأ النزاع يظهر بعدما قويت شـــوكة الإخوان، ومع محاولة فـــرض منهجهم على الجماعة الإســـلامية، فبعض الشـــباب اختار المحافظة على المنهج، ولو على حساب الجماعة، والبعض الآخر اختار المحافظة على الجماعة ولو على حساب المنهج.. ظهر التمايز بينهما على السطح في أوائل ســـنة ١٣٩٩هـ.. ولما حضرت إلى معسكر الجماعة الإسلامية كالمعتاد وجدت تغيرًا كما يقولون مائة وثمانين درجة إلى منهج الإخوان، فلم أستطع أن أكمل المعســـكر وانسحبت، وانسحب معي مجموعة كبيرة من الإخوة، وهنا ظهر أن هناك عملاً إخوانيًّا صرفًا».[2]

الإشـــكالية الثالثة: ترافق مع النشأة الثانية للإخوان المســـلمين في حقبة الســـبعينيات وجود تيار سلفي قوي في أغلب الدول العربية، وكان لهذا التيار رموزه الدينيـــة وعلمـــاؤه البارزون، وقد أدى هـــذا الترافق

(١) الدكتور ياســـر برهامي: «في شهادته عن نشـــأة الدعوة السلفية في الإســـكندرية»، موقع إســـلاميون. إســـلام أون لايـــن، ج٣، على هذا الرابط:

http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1252188303314&pagename=Islamyoun%2FIYALayout

(٢) الدكتور ياســـر برهامي: «في شهادته عن نشـــأة الدعوة السلفية في الإســـكندرية»، موقع إســـلاميون. إســـلام أون لايـــن، ج٢، على هذا الرابط:

http://islamyoon.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1252188116162&pagename=Islamyoun%2FIYALayout&ref=body&ref=body

-منذ النشـــأة- إلى تزايد مســـاحات العمل المشتركة بين التيارين، وهو ما أســـفر عن اتساع رقعة الخلاف وتجاوزها لأي محاولات -نادرة- لرأب الصدع.

٣- تفسير الواقع ومنهج التعامل معه:

يُعد تشـــخيص الواقع وتحديد مواطن الخلل، وكيفية معالجتها، من أبرز مواطن الخلاف بين المنهجين السلفي والإخوانـــي، وهو مـــا يزيد من صعوبة تلاقي التيارين وتقاربهما، حتى مع تراجع التعصب وخفوت مستويات المواجهة.

يُعد تشـخيص الواقع وتحديـد مواطن الخلل، وكيفية معالجتها، من أبـرز مواطن الخلاف بين المنهجين السـلفي والإخواني، وهو ما يزيد من صعوبة تلاقي التيارين وتقاربهما، حتى مع تراجع التعصب وخفوت مستويات المواجهة.

فالســـلفيون ينظـــرون إلـــى المجتمـــع بعـــين الباحـــث عن الانحرافات لتقويمها مباشـــرة، وخاصة الانحرافات العقديـــة، أما الإخـــوان فينظرون إلـــى المجتمع بعين الباحث عن أدوات ووســـائل الســـيطرة، والتحكم في إدارة هذا المجتمع بهدف إصلاحه، وكنتيجة مباشـــرة لهذين النهجين المختلفين، فإن السلفيين يرتفع عندهم الخطاب النقدي الوعظي للمجتمع، بينما يؤثر الإخوان الخطاب التصالحي الاحتوائـــي الذي يميل إلى غضّ الطـــرف عن كثير من الانحرافـــات، أو تأجيل البحث فيها إلى أجل غير مسمًّى.

وبتعبير أحد الإعلاميين من الإخوان، فإن «السلفيين يركزون على أمور الآخرة وينشغلون عن إصلاح الدنيا، لكن مهمة الإخوان هي إصلاح الدنيا والعمل للآخرة، فلو تأثر بعض الإخوان بهذا المنهج فسيحدث خلل».[1]

قضية التأصيل الشـــرعي للتعامـــل مع الواقع تثير خلافًـــا إضافيًّا، فالســـلفيون يطرحـــون الأمر بهذه الصورة: هل هذا التصرف جائز شرعًا؟ أما الإخوان فيطرحـــون الأمر بصـــورة مختلفة: لمـــاذا يجوز هذا التصرف؟ وبعبارة أخرى، فإن السلفيين يتوقفون كثيرًا قبـــل الإقدام على أمر أو فكر، أو وســـيلة جديدة في الدعوة -أحيانًا أكثر من اللازم- حتى يستوفوها حقها من البحث والدراســـة، بينما الإخوان يضعون أنفسهم في وضعية التأهب والاضطـــرار وتضييق الخيارات، حتـــى لا يجدوا أمامهـــم إلا البحث عن مســـوغات للفعل الذي لا يملكون -بحســـب رؤيتهم- ســـبيلاً للعـــدول عنه، ولذلـــك تأتي تأويلاتهم في كثير من الأحيان مشابهة لمسألة «أكل الميتة للمضطر»؛ حيث إن أغلب ظروفهم «اضطرارية».

لكـــن ممـــا يقلِّـــل مـــن تأثير هذا العامل -نســـبيًّا- في اتســـاع الهوة بين الإخوان والســـلفيين، هو الاختلاف الداخلي بين الســـلفيين أنفسهم حول هذه المسألة تحديدًا وهي تفسير الواقع والتعامل معه.

فأغلـــب التيـــارات الســـلفية تعتمد فـــي مواجهة الانحرافات أسلوب التعليم أو الدعوة المباشرة، وقليل منها من يوسِّع دائرة الوسائل والأساليب، كما تتفاوت الجماعات الســـلفية في ترتيب أولويات الانحرافات، حتى وإن كانت تتفق فـــي غالبيتها على كون تصحيح العقيدة هو الهدف الأســـمى، فقضية تحكيم الشريعة هي من الأولويات عند البعض، بينما يؤخرها آخرون ويجعلون محاربة مظاهر الشرك والقبورية على رأس قائمة الأولويات.

مثال آخر هو: مســـألة المشـــاركة فـــي الانتخابات النيابية، يعدها بعض الســـلفيين مخالفة عقدية تصل في بعض ممارســـاتها إلى حد الإشـــراك بالله، بينما ينظر إليها بعضهم بوصفها وســـيلة دعوية للإصلاح والتغييـــر، فنجد تيارات ســـلفية تشـــارك بقوة في الانتخابات في دول مثل الكويت والبحرين، وحتى في الدول الأكثر علمانيـــة مثل الجزائر، بادرت قطاعات

(١) صلاح الدين حســـن: «الفضائيات الســـلفية والإخوان.. تغلغل يثير قلقًا»، إســـلام أون لايـــن، ٢٠٠٩/٦/٨م. والإعلامـــي هو «أحمد عز الدين»، على هذا الرابط:

http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1246346097298&pagename=Islamyoun%2FIYALayout

من السلفيين في مقدمتهم الشيخ علي بن حاج إلى المشاركة في الانتخابات على نطاق واسع من خلال الجبهة الإسلامية للإنقاذ، وهو ما أوقعه في دائرة الاستهداف من قبل سلفيين يرفضون الانتخابات، ويعتقدون ببدعية تأسيس حزب سياسي، وبعضهم من رفاقه وتلامذته، وكانوا يرفعون شعار «من السياسة ترك السياسة».[1]

وفي لبنان ذات النظام العلماني الذي يجعل رئيس البلاد نصرانيًا، ورئيس مجلس النواب شيعيًا، تؤيد بعض الجماعات السلفية الدخول في الانتخابات، مؤكدين على أن ذلك يأتي بعد تأصيل شرعي واستفتاء للعلماء، يقول صفوان الزغبي رئيس جمعية وقف التراث الإسلامي اللبنانية: «نحن منذ زمن بعيد نعتقد بجواز المشاركة في الانتخابات النيابية ترشحًا واقتراعًا، غير أنّه لم يكن لنا مشاركة قوية في العملية الانتخابية، لكن عندما قررنا إثبات وجودنا على الساحة السياسية استفتينا كبار المشايخ في الدعوة السلفية فأصدروا هذه الفتوى، وأقدمنا».[2]

يدخل ضمن قضية التأصيل الشرعي للواقع عند السلفيين مشكلة أخرى، وهي وقوع بعض الرموز في تناقضات نتيجة ضغط الواقع نفسه، فنجد أنهم ينتقدون الإخوان في مسألة ما، بينما يتجاوزون في نفس المسألة عندما تمسّ نظامًا علمانيًا.

٤- القيادة والتأثير:

يمتلك المنتمون لجماعة الإخوان المسلمين قناعة قوية بأن حركتهم هي الجديرة بقيادة الأمة نحو الإصلاح والتغيير المنشود، وأن غيرهم من الجماعات الإسلامية هم مجرد عقبات في الطريق، لا يملكون أي خطط أو مشروعات واضحة للتغيير، ولذلك يجب إزاحتهم أو احتواؤهم، ومبعث هذه القناعة ثلاثة أمور:

أولها: الكيان الواحد القوي:

ينظر الإخوان إلى أنفسهم بوصفهم الجماعة الوحيدة التي استطاعت أن تحافظ على تماسكها وقوتها منذ نشأتها الأولى قبل ثمانين عامًا، كما أنها الجماعة الوحيدة التي تنتشر في كافة الدول العربية مع تبنيها لمنهج واحد، فضلاً عن تمتعها بالكثافة العددية والإمكانات المادية، وفي المقابل فإن منافسيها من السلفيين لا تجمعهم جماعة واحدة ولا قيادة واحدة، وهم مختلفون فيما بينهم؛ بحيث إن بعض هذه التيارات أقرب إلى الإخوان من تيارات سلفية أخرى.

يمتلك المنتمون لجماعة الإخوان المسلمين قناعة قوية بأن حركتهم هي الجديرة بقيادة الأمة نحو الإصلاح والتغيير المنشود، وأن غيرهم من الجماعات الإسلامية هم مجرد عقبات في الطريق، لا يملكون أي خطط أو مشروعات واضحة للتغيير، ولذلك يجب إزاحتهم أو احتواؤهم.

ثانيها: الكيان الوعائي الجامع:

تأسس الإخوان بوصفهم حركة جامعة لأشتات العاملين للإسلام، ووفق هذا المفهوم جاء منهج الجماعة مرنًا بما يكفي لجمع هذا الشتات تحت راية واحدة، ومع تغير أوضاع العمل الإسلامي وظهور تيارات أخرى بخلاف الإخوان، ظلت الجماعة محتفظة بنفس المنهج ونفس التصور العام للعمل الإسلامي (الإخوان= الجماعة الأم)، ولذلك افتقد أتباع الإخوان القدرة على تكوين أُطُر فعالة للتواصل مع الجماعات الأخرى، وغلب على أطروحات الجماعة في هذا الصدد ترسيخ أسبقية الحركة وإمامتها على

(١) عبد الرحمن أبو رومي: «سلفية الجزائر انفراط حبات العقد»، إسلام أون لاين، ٢٠٠٨/٧/٢٢م.

http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1216207933337&pagename=Zone-Arabic-Daawa%2FDWALayout

(٢) حوار مع الشيخ صفوت الزغبي رئيس جمعية وقف التراث الإسلامي السلفية في لبنان، موقع إسلاميون، ٢٠٠٩/٦/٧م:

http://mdarik.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1243825021382&pagename=Islamyoun%2FIYALayout

الآخرين، وهو ما نتج عنه إشكالات معقدة في واقع العمل الإسلامي، تزايدت مع عجز منظري الإخوان وكوادرهم عن وضع آليات مؤثرة للتنسيق أو التقارب مع الجماعات المغايرة.

ثالثها: المشروع القوي للتغيير:

لا شك أن الإخوان يمتلكون قدرات تنظيمية عالية، وأنهم نجحوا في بعض الدول في بناء هيكلية معقدة يصعب إجهاضها، كما أنهم يمتلكون مشروعًا قويًا للتغيير، وهو ما كشفت عنه قضية «سلسبيل» في مصر، والتي بيَّنت وثائقها أن الإخوان لديهم مشروع أُطلق عليه اسم «التمكين» يعيد تنظيم الجماعة إداريًا، ويرتب هياكلها ومؤسساتها المختلفة بطريقة بالغة الدقة، ويرسم لها خطوات محددة وممنهجة للسيطرة وتولي السلطة سلميًا، وهو المشروع الذي اكتشفت وثائقه عام ١٩٩٢م على «ديسكات» كمبيوتر في شركة سلسبيل التي كان يمتلكها خيرت الشاطر عضو مكتب الإرشاد.[١]

هذا المشروع القوي يجعل قيادات الإخوان ينظرون بنوع من «الاستصغار» للأجندة السلفية، وما تحويه من أنشطة وأهداف وطموحات، كما يقول الدكتور عصام العريان إن: «السلفيين يهتمون بالقضايا الجزئية الفرعية التي تحيطها الخلافات الفقهية، والاهتمام بالتدين الظاهر، أما الإخوان فيهتمون بمسائل أوسع من ذلك بكثير وأكثر تنوعًا».

ويؤكد العريان -بمفهوم كلامه- توفر القناعة لدى قيادات الإخوان بأن السلفيين هم عقبة في طريق التغيير؛ حيث يعتبر أن انتشار الخطاب السلفي عبر الفضائيات هو من تخطيط عناصر داخل النظام، فيقول: «في داخل النظام من يجيد لعبة التوازنات، أو يحاول أن يوظف كل الاتجاهات في صالح بقاء النظام وصالح عدم معارضته، ولضرب التيارات بعضها ببعض»، ولذلك يعتقد العريان أن هذا «الانتشار السلفي» ستكون له آثار سيئة جدًا؛ لأنه يشيع -بزعمه- «مناخًا متشددًا جدًا في العلاقة بين المسلمين وبعضهم، لا يحترم الخلافات الفقهية، ويشيع أيضًا مناخًا من التشدد والتوتر تجاه غير المسلمين».[٢]

الغريب أن هذه التهمة ذاتها وُجِّهت إلى الإخوان والحركة الإسلامية كلها في مصر مطلع السبعينيات، بالقول: إن السلطات سمحت لهم بالعمل داخل الجامعات لضرب الاتجاه اليساري.[٣]

ورغم أن هذا القول على درجة من الصحة، فلم يتهم أحد من الإسلاميين الإخوان بأنهم صنيعة النظام، أو ينتقص من قدرهم لهذا السبب.

في المقابل لا يعترف السلفيون بأحقية الإخوان في قيادة العمل الإسلامي، أو اتخاذ القرارات المصيرية بصورة مستقلة؛ نظرًا لاعتقادهم بصدقية مواقفهم المبنية على تأصيل شرعي منطلق من الكتاب والسنة، وأيضًا لاقتناعهم بأن الإخوان يتجاوزون الكثير من الثوابت الشرعية في مسيرتهم السياسية.

٥- التنافس الميداني:

نتج عن الترافق في النشأة -الذي سبقت الإشارة إليه- بين الإخوان والسلفيين، حدوث تداخلات كثيرة في ميادين العمل بين التيارين، ومع كل الاختلافات السابقة كان لا بد من حدوث احتكاكات وصلت في بعض الأحيان إلى التراشق اللفظي والتلاحم اليدوي في كل مكان يجتمع فيه السلفيون مع الإخوان حتى في المعتقلات.

(١) حسام تمام، تحولات الإخوان المسلمين.. تفكك الأيديولوجيا ونهاية التنظيم، مرجع سابق، ص ٩.

(٢) صلاح الدين حسن: «الفضائيات السلفية والإخوان.. تغلغل يثير قلقًا»، مرجع سابق.

(٣) انظر تفصيل هذه القضية في كتاب «الجماعة الإسلامية المسلحة في مصر ١٩٧٤-٢٠٠٤م» تأليف د. سلوى العوا، دار الشروق، ص ٧٢- ٧٥.

ويبدو هذا العامل عسيرًا في تجاوزه نحو تحقيق التقارب المنشود، وإن كانت بعض التجمعات السلفية الفاعلة في مصر قد نجحت في إرساء نموذج فعَّال لتجفيف منابع التصارع الميداني مع الإخوان في نطاق عملهم الدعوي المشترك، بل تجاوزت ذلك إلى إرساء قواعد مشتركة لبناء علاقة ود وتواصل بعيدًا عن التعصب والخصومة.

وتتحدد ميادين التنافس عادة بحسب المجالات التي تخوضها التيارات السلفية، في مصر –على سبيل المثال– تنشأ الصراعات في ميادين الدعوة الطلابية وفي المساجد، وفي الكويت تمثل الانتخابات ساحة واسعة للصراع وتبادل الاتهامات.

وتتفاوت حدة التنافس بحسب التناسب بين قوى التيارين، وهذا يتغير من دولة لأخرى، في مصر مثلاً يحتل الإخوان الصدارة من حيث الانتشار العددي والجغرافي والتنظيمي، بينما في الكويت تبدو الصورة متعادلة، وفي بعض دول الخليج تتفوق التيارات السلفية في جميع المجالات، ومع تأمل حالة العلاقة بين الإخوان والسلفيين في هذه النماذج الثلاثة (مصر – الكويت – دول خليجية أخرى) يمكن الخروج بنتيجة مهمة للغاية:

١– أن السلفيين عندما يكونون أقلية، فإن مستوى انتقادهم للإخوان يتزايد بدرجة ملحوظة، والعكس عندما يصبح السلفيون أغلبية في دولة ما، فإنهم ينهجون نهجًا معتدلاً في التعامل مع الإخوان.

٢– وعلى النقيض من ذلك بالنسبة للإخوان، فهم يبدون تعصبًا أقل عندما يصبحون أقلية في دولة ما، ولكنهم يزدادون تعصبًا ضد السلفيين عندما يصبحون أغلبية.

٣– يقدم أداء الإخوان المتعصب في بعض الأحيان دافعًا قويًّا للسلفيين؛ كي ينظموا صفوفهم، ويرفعوا رايتهم، وقد تأسست المدرسة السلفية بالإسكندرية بالأساس عام ١٩٨٠م ردًّا على اختراق الإخوان للجماعة الإسلامية في حقبة السبعينيات.[١]

كيف تعمل هذه الأسباب في إدارة العلاقة بين التيارين؟

إن هذه الأسباب تعمل مجتمعة مع تفاوت تأثير كل منها بحسب اختلاف الظروف، وفي بعض الأحيان قد يتراجع تأثير بعضها إلى الحد الأدنى.

هذه الأسباب ليست حاضرة بنفس الدرجة مع كل من التيارين، فالأسباب العلمية تصوغ القدر الأكبر من التصور السلفي عن الإخوان، بينما عامل تفسير الواقع والتعامل معه يصوغ القدر الأكبر من التصور الإخواني عن السلفيين، وبينهما عوامل تحمل نفس القدر من التأثر مثل: التنافس الميداني.

كما أن الانتقادات العلمية الموجهة إلى الإخوان بصفة عامة لا يمكن إسقاطها عينًا على كافة المنتمين للإخوان؛ إذ يوجد في صفوفهم من هو غير راضٍ عن توجهات القيادات والرموز واختياراتهم الفقهية والسياسية، ومثال ذلك: الموقف من الشيعة وإيران، فعلى الرغم من التأييد العلني لإيران على لسان المرشد محمد مهدي عاكف، إلا أنه يوجد بين صفوف الجماعة من يرفض هذا التوجه وينكره، وقد كتب الدكتور عصام العريان القيادي البارز في الإخوان مقالاً بعنوان: «إيران إلى أين.. ولاية الفقيه أم ولاية الأمة؟» ينتقد فيه النظام الإيراني في محاولة لموازنة موقف المرشد، كما تبنى الدكتور يوسف القرضاوي موقفًا قويًّا في كشف المخططات الشيعية في دول عربية.

وفي قضية أخرى شنّ الداعية الإخواني المعروف وجدي غنيم هجومًا حادًّا على الدكتور طارق السويدان بسبب استفتاء نُشِر على موقع قناة الرسالة عن تحكيم الشريعة، وهو ما عدَّه الشيخ غنيم وسطية مزعومة ومرفوضة؛ كونه يحول قضية عقدية إلى مسألة اختيارية، ونصح السويدان بالتوبة عن هذا التوجه.[٢]

(١) شهادة د.برهامي ج٣، مرجع سابق.

(2) http://www.youtube.com/watch?v=2VHoMUbx1jA

النقطة السابقة تلفت إلى أهمية استحضار وصف «الفكر الوعائي» عند نقد الإخوان، بمعنى أنهم لا يتبنون بالضرورة موقفًا واضحًا محددًا في كافة الإشكالات الشرعية التي يُتهمون بها، ولكنهم بمثابة الوعاء الذي يقبل بأن يضم اتجاهات مختلفة تتبنى رؤى واختيارات متعارضة أحيانًا حول قضايا مهمة، وأقرب مثال على ذلك هو اختلاف موقف قيادات الإخوان في العراق من الاحتلال والاتفاقية الأمنية مع الولايات المتحدة.

هناك ظاهرة تحتاج إلى دراسة مستقلة، وهي أن بعض التيارات السلفية الأكثر حدة في انتقاد الإخوان، هي في الوقت نفسه التيارات السلفية الأقل حدة في انتقاد الأنظمة العلمانية في الدول العربية، فهل يمكن اعتبار ذلك قاعدة مطردة؟

فعلى الرغم من التأييد الرسمي للحزب الإسلامي للاتفاقية، وقبل ذلك مشاركته لمؤسسات الحكم التي أنشأها الاحتلال، فإن قيادات بارزة في إخوان العراق أفتوا بخلاف ذلك، فقال الدكتور عبد الكريم زيدان- المراقب العام للإخوان المسلمين سابقًا- : «إن المقرر في الفقه الإسلامي والمتفق عليه بين الفقهاء أنه إذا احتُلَّ بلد مسلم وجبَ شرعًا على أهل هذا البلد وذي السلطة إخراج المعتدي المحتل، وهذا واجب شرعي لا يسقط بالتقادم ولا تجوز المساومة عليه».

وقال الشيخ محمد أحمد الراشد: «ليست الاتفاقية في مصلحة العراق، وهي تطعن خاصرة الإسلام، وتستمر في ظلم المجاهدين، ولا يمكن تأويلها بخير، وهي منكر وحرام في عقيدة التوحيد وأحكام الشرع، ولا مجال للإفتاء بغير حرمة التوقيع عليها، وإسقاطها واجب الوقت».[1] وكان الراشد قد أصدر كتابًا بعنوان «نقض المنطق السلمي» أنكر فيه أي مصلحة مزعومة للخيار السياسي من خلال التعاون مع سلطات الاحتلال.

وهناك ظاهرة تحتاج إلى دراسة مستقلة، وهي أن بعض التيارات السلفية الأكثر حدة في انتقاد الإخوان، هي في الوقت نفسه التيارات السلفية الأقل حدة في انتقاد الأنظمة العلمانية في الدول العربية، فهل يمكن اعتبار ذلك قاعدة مطردة؟ ومن ناحية أخرى نفس هذه التيارات تحول نفسها تدريجيًا إلى ما يشبه «مركز المنهج السلفي» من يقترب منه فقد اقترب من السلفية، ومن ابتعد عنه فقد ابتعد عنها، لذلك فإن أكثرها حدة عادة ما يكون في حالة خصومة مستمرة مع بقية التيارات المخالفة له سلفية وغير سلفية، وأغلب هؤلاء ليسوا جماعات بالمعنى المعروف، وإنما يغلب عليهم نمط «الشيخ والأتباع».

سيناريوهات التقارب بين الإخوان والسلفيين

المعني بهذا المحور الجماعات والتيارات والتجمعات، وليس الأشخاص، فالقواعد التي تحكم التقارب بين التيارين على المستوى الجماعي لا تنطبق بالضرورة على التقارب الفردي.

ومن المهم قبل استعراض تلك السيناريوهات التأكيد على أن هذه الدراسة لا تتعامل مع كل من التيارين السلفي والإخواني بوصفه كتلة واحدة، فواقع الأمر أن التيار السلفي تتعدد تفريعاته، كما أن الإخوان وإن كانوا جماعة واحدة في المجمل من حيث المنهج العام، إلا أنه يمكن النظر إليهم واقعيًا على أنهم جماعات متعددة من الناحية الجغرافية، وأيضًا فإنه يمكن النظر إلى بعض القطاعات والشرائح داخل الجماعة الواحدة في البلد الواحد بوصفهم كتلة متجانسة تنطبق عليها السيناريوهات المعروضة لاحقًا.

بمعنى أنه عندما نتحدث -مثلاً- عن احتمال حدوث اندماج بين السلفيين والإخوان، فلا نقصد بالضرورة عموم السلفيين وجماعة الإخوان الدولية، فقد تنطبق

(١) برنامج المشهد العراقي قناة الجزيرة ٢/١١/٢٠٠٨م.

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/6575A831-222E-4B8A-AF09-21F3059D5166.htm

التوقعات على العلاقة بين جماعة سلفية في منطقة معينة، وبين فرع الإخوان المسلمين في هذه المنطقة دون غيرها.

وأخيرًا فإن هذه السيناريوهات تدمج بين ما هو قائم بالفعل، وما هو محتمل، وما هو مأمول.

أولاً: سيناريو الذوبان:

يتضمن هذا السيناريو تحول أحد التيارين - السلفي أو الإخوان- عن منهجه الفكري إلى المنهج الآخر بصورة تامة؛ بحيث يتنازل عن مقتضيات وثوابت منهجه القديمة ولوازم الانتماء السابقة بما فيها المسمى العام.

عندما نتحدث -مثلاً- عن احتمال حدوث اندماج بين السلفيين والإخوان، فلا نقصد بالضرورة عموم السلفيين وجماعة الإخوان الدولية، فقد تنطبق التوقعات على العلاقة بين جماعة سلفية في منطقة معينة، وبين فرع الإخوان المسلمين في هذه المنطقة دون غيرها.

وهذا يعني أن السلفي تتكون لديه قناعة بتحوله إلى عضو في جماعة الإخوان، أو العكس بالنسبة للإخواني.

ومن الصعب تخيل حدوث تحولات جذرية بهذه الحدة في الماضي أو المستقبل، نعم قد يحدث ذلك بمعدلات متزايدة على المستويات الفردية، ولكن أن تتنازل جماعة عن منهجها واسمها بهذه الكيفية، فذلك أمر مستبعد.

لكن هذا القول ليس على إطلاقه، فقد رُصدت حالات قديمة في بعض الدول-مثل سوريا- حدث فيها ذوبان كامل لقطاعات كانت تنتمي إلى السلفية، وأصبحت منتمية لاحقًا إلى جماعة الإخوان المسلمين في بداية تأسيس فرعها السوري عام ١٩٤٥م، كما سبقت الإشارة إلى تحول قطاعات واسعة من الجماعة الإسلامية السلفية في مصر أواخر السبعينيات إلى جماعة الإخوان، ولكن تجب الملاحظة أن ذلك كان فقط في بداية التأسيس والنشأة، وقبل أن تظهر التيارات السلفية بصورتها المعروفة حاليًا، وتتطور تصوراتها ومناهجها وأساليبها.

ثانياً: سيناريو الاندماج:

وفق هذا السيناريو تقوم جماعتان -سلفية وإخوانية- بالاتحاد وتكوين جماعة جديدة لها منهج مستقل عن المنهجين القديمين؛ بحيث إن المنهج الجديد يتضمن ثوابت وأفكارًا سلفية وإخوانية يتم التوافق عليها بين المؤسسين للتيار الجديد، مع التنازل أو التغاضي عن ثوابت أخرى، وكذلك التنازل عن الاسم القديم للتيار واستبداله بتسمية جديدة.

ورغم صعوبة حدوث مثل هذه التقاربات الحادة؛ كونها تتضمن التنازل عن الانتماءات الأصلية، إلا أنها حدثت بدرجة ما في الجزائر؛ حيث توحدت شرائح كانت تنتمي سابقًا إلى تيار الإخوان المسلمين المحلي والتيار السلفي -إضافة إلى آخرين- وتكونت جماعة جديدة هي الجبهة الإسلامية للإنقاذ.

وقريبًا من هذا ما حدث في إريتيريا؛ حيث اتفق الإخوان والسلفيون على تشكيل تجمع واحد سُمِّي بحركة الجهاد الإريتري استمر لعدة سنوات، ثم حصل الشقاق من جديد.

لكن أن تحدث هذه الاندماجات على مستوى جماعة كبيرة بأسرها، مثل إخوان مصر، أو إخوان الأردن، فلا يوجد لها سابقة، ولا يتوقع أن تكون لاحقة، والله أعلم.

ثالثًا: سيناريو التحالف:

في هذا السيناريو لا يحدث أي تداخل منهجي، ولكن يقدم كل تيار تنازلات تكتيكية من أجل التوافق على تحقيق هدف مرحلي مشترك -الانتخابات مثلاً-، وقد يكون تحالفهما كليًا مستمرًا، كأن يكون توافقًا على إنشاء حزب سياسي مشترك، أو الدخول

تحت اسم واحد وكتلة واحدة في الانتخابات بصورة دائمة.

وقد يكون التحالف جزئيًا مؤقتًا، كالمشـــاركة في دورة واحدة، سواء في انتخابات البرلمان، أو النقابات المهنية، أو الاتحادات الطلابية.

والتحالف بصورته الكلية لا توجد أمثلة حقيقية على تحققه بين الإخوان والسلفيين، وإن كانت العقبات في طريقه ليس من العسير تجاوزها، خاصة أن التحالف الجزئي حدث بالفعل في عدة حالات، منها التحالف الذي تم بين التيارين في انتخابات الاتحاد الطلابي الوطني في الكويت، ودخولهما تحت مســـمى «الكتلة الإســـلامية»، وكانت النتيجة تحقيق فوز كاسح بلغت نسبته ٤٧٪، وذلك على الرغم من أن التيارين دخلوا الانتخابات النيابية قبل ذلك بأشهر كمتنافسين، وهو ما أسفر عن تحقيقهما نتيجة متداعية.

ومن المهم ملاحظـــة التحالفات السياســـية التي عقدهـــا إخوان مصر مع عدد من الأحزاب العلمانية مثـــل حزبي «الوفد» و«الأحرار»، ثـــم حزب «العمل» الذي تغيرت وجهته اقترابًا من الإسلام لاحقًا.

رابعاً: سيناريو الشراكة:

لا توجد وفق هذا السيناريو أي تداخلات منهجية، أو ارتباطات دائمة على مســـتوى الجماعة، ولكن يتم التوافق على تنفيذ -أو تأســـيس- مشـــاريع مشتركة تخدم أجنـــدة كل من التيارين، وقد تكون مشـــاريع مستمرة كإنشاء مؤسسة إعلامية أو خيرية، أو دعوية مشتركة، وقد تكون مؤقتة، مثل عقد مؤتمر أو ندوة.

هذه التداخلات العملية من شأنها أن تخفف درجة الاحتقان، كمـــا أنها تفيد في تلاقـــح الأفكار ونقل الخبرات، وإثراء العمل الإسلامي، وأيضًا فإنها تفتح مجالاً واسعًا لتبادل النصح وتصحيح المفاهيم.

ولا يشـــترط أن تنطلق هذه المشـــروعات المشتركة من اتفاق رســـمي بين التيارين، ولكن يكفي أن يحصل الأتباع على الضوء الأخضر، وعادة ما تكون المبادرات الفردية لتحقيق تقارب جماعي أكثر فاعلية وتأثيرًا.

خامساً: سيناريو التأييد:

تتقلص العلاقة في هذه الحالة لتصل إلى مســـتوى الاكتفاء بالتأييد والنصرة في مواطن البلاء والشـــدة خاصة، وتتنوع أســـاليب ووسائل التأييد ما بين تقديم الدعم المادي أو المعنوي، ولا يجب أن يقتصر ذلك على التيارات الأبعـــد جغرافيًا، بل ينبغي الحرص على أن تتواصل دوائر التأييد والنصرة في البلد الواحد لبلوغ مستويات أعلى من التقارب، وإزالة الحواجز النفسية وبواعث التعصب.

سادساً: سيناريو كفّ الأذى:

تُختزل العلاقة بين الإخوان والســـلفيين حســـب هذا الســـيناريو، وصولاً إلى الحد الأدنـــى من التقارب، وهو «كفّ الأذى»، وهو المستوى المطلوب من المسلم العادي، كما جاء في سؤال أبي ذر -رضي الله عنه- عن أي الأعمال أفضل؟ فتدرج معه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال عليه الســـلام في نهاية الحديـــث: «تكف أذاك عن الناس فإنها صدقة تصدق بها على نفسك».[1]

وانطلاقًا من هذه المســـتوى ينبغي أن تتوقف كافة الحملات الدعائية والإعلامية المهاجمة للتيار الآخر، وأن يتم اســـتبدالها بوســـائل وقنوات راشدة لتبادل النصح والتوجيهات والمعلومات، كما يلزم وضع آليات لاحتواء الخلافات الميدانية، وتأسيس لجان متخصصة لمتابعتها، وحل الإشكالات الناجمة عنها بصورة فورية، مع الاتفاق على مرجعية تحكيم للفصل في النزاعات المشـــتركة تضم علماء ودعاة من الطرفين مشهود لهم بالاعتدال وعدم التعصب.

(١) متفق عليه.

ملامح عامة حول استراتيجية التقارب المنشودة

١- ما سبق ذكره من سيناريوهات للتقارب بين الإخوان والسلفيين لن يكتسب أي قيمة إذا لم تتوفر دوافع قوية لدى التيارين لتحقيقها، وبدون هذه الدوافع يصبح الكلام عن إزالة الخلافات ورأب الصدع تحصيل حاصل، والمشكلة في هذه الدوافع أن بعض القيادات لدى الطرفين ربما تعتقد بأن مصلحة جماعتها في بقاء الهوة واستمرار الخلافات؛ حفاظًا على الهوية، أو لعدم القناعة بوجود أي فائدة تعود على الجماعة من هذا التقارب.

٢- تتوفر إمكانية كبيرة لتبادل التأثير الإيجابي بين التيارين بعيدًا عن تبادل العلاقات والتواصل بصورة رسمية، وهناك أمثلة ودلائل واضحة على التأثير القوي المتبادل بين الإخوان والسلفيين؛ من حيث تأثر كل تيار بمنهج وأفكار التيار الآخر، فقد استفادت فصائل سلفية كثيرة من خبرات الإخوان وتجاربهم الدعوية والتنظيمية والتربوية، وعدد لا بأس به من نشطاء الدعوة السلفية بدءوا مسيرتهم الدعوية في صفوف الإخوان.

ومن ناحية أخرى فإن الوجود السلفي بزخمه وتأثيره وخطابه وثقله العلمي يمارس دورًا رقابيًّا بالغ الأهمية في «كبح» منحنى التميع الفقهي لدى الإخوان-نسبيًّا-، وخاصة مع انتشار هذا الخطاب من خلال وسائل الإعلام في السنوات الأخيرة؛ إذ كان الإخوان يراهنون دومًا على صعوبة تقبُّل الناس لهذا الخطاب، وهو ما ثبت عكسه تمامًا.

ومن أمثلة التبادل الإيجابي الواضحة، تأثر حركة حماس الفلسطينية بعلاقاتها القوية مع التيار السلفي في الخليج العربي، فقد مارس هذا التيار دورًا فعالاً في ترشيد مسيرة الحركة من خلال النصح المتبادل والشورى الراشدة.

٣- قدمت تيارات الصحوة في بعض دول الخليج وبعض التيارات السلفية في مصر نموذجًا راقيًا في التعامل مع الجماعات المخالفة لها -وفي مقدمتها الإخوان المسلمون- بعيدًا عن التعصب، ونجحت في تحقيق مستويات مقبولة -وليست منشودة- من تخفيف حدة التأزم البيني، وهذا النموذج غير مسبوق لدى كافة تيارات العمل الإسلامي، وهو نموذج قابل للاقتداء به، ويحتاج إلى تفعيل تجاربه على كافة المستويات.

٤- التقارب مع التيارات الأبعد أكثر احتمالاً من التقارب مع التيارات الأدنى؛ إذ نجد في حالات متعددة أن علاقة إحدى جماعات الإخوان بالتيارات السلفية الأبعد عن نطاق عملها الجغرافي أكثر إيجابية من التيارات التي تشاركها ميادين العمل، ينطبق ذلك على علاقة حماس بالتيار السلفي الخليجي، مقارنة بعلاقتها مع السلفيين في فلسطين، أو في غزة تحديدًا، نفس الأمر ينطبق على موقف غالبية السلفيين في مصر من حركة حماس، وتأييدهم لها، خاصة في الحرب الأخيرة، مقارنة بموقفهم من إخوان مصر.. وهكذا.

٥- يوجد بين السلفيين من يقترب بفكره وأطروحاته التغييرية من الإخوان المسلمين دون الإشكالات العلمية، كما يوجد في المقابل بين صفوف الإخوان من يقترب بخطابه وخياراته الشرعية من السلفيين، وتلك النقطة تصلح أن تكون ملتقًى للنصح وتبادل التأثير.

٦- على الصعيد الإعلامي فإن المنابر التي تتبنى الخطاب السلفي في مجملها أكثر انتشارًا وأسرع وصولاً إلى الجماهير، خاصة فيما يتعلق بالخطاب الديني، وذلك مقارنة بمنابر الإخوان المسلمين.

وهذا النجاح في التأثير في الرأي العام أحدث تغيرات -جذرية أحيانًا- لدى القاعدة العامة للإخوان، هذه الطفرة في الوضعية السلفية أجبرت قيادات ومنظري الإخوان على إعادة النظر في تقويمهم

لإمكانات التيارات السلفية، وقدراتها على التأثير في المجتمعات الإسلامية، ولا شك أن شعور الإخوان بأنهم أمام طرف لا يُستهان بقوته، ولا بإمكاناته سيجعل من غير الممكن التعامل مع هذا الطرف بنفس الأفكار القديمة التي تحتقر الوجود السلفي وتنتقص من قدره.

وبمعنى آخر فإن تزايد قوة السلفيين وتنامي تأثيرهم يصب في اتجاه التقارب وليس التباعد، وإن كانت بعض الكتابات المنتمية إلى الإخوان تبرز هذه الظاهرة على أنها نذير خطر.

على الجانب السلفي فإنه نتيجة تصنيف منهج الإخوان عند كثير من التيارات السلفية بوصفه منهجًا مخالفًا لأحكام الشرع ومتجاوزًا لثوابت دينية، فقد أصبحت مجرد فكرة التقارب مع الإخوان «تهمة» يجب المسارعة بنفيها، وتقريبًا لا يوجد على الساحة السلفية إلا تيار واحد هو الذي ينظر إلى الإخوان نظرة معتدلة منصفة تثبت إيجابياتهم وسلبياتهم على السواء.

وعلى سبيل المثال فإن انتشار الخطاب السلفي من خلال الفضائيات يثير القلق لدى الإخوان كما سبق ذكره، إلى درجة أن بعضهم يزعم أن انتشار الخطاب السلفي يهدد مشروع الدولة الإسلامية، يقول أحد الإعلاميين الإخوان:

«إن السلفيين يركزون على أمور الآخرة وينشغلون عن إصلاح الدنيا، لكن مهمة الإخوان هي إصلاح الدنيا والعمل للآخرة، فلو تأثر بعض الإخوان بهذا المنهج فسيحدث خلل.. لو بدأت الأمور تمضي في هذا الاتجاه فقط، وتم سحب رصيد الناس التي تدعو إلى إصلاح الدنيا هنا يكون موطن الخطر، ليس على الإخوان، ولكن على الدولة الإسلامية نفسها».[1]

٧- أفادت تجارب عديدة أن التواصل الفردي مع رموز وقيادات الإخوان يعطي نتائج أفضل من التواصل الجماعي العام، وربما يأتي ذلك نتيجة تأثر الإخوان بالقاعدة المعمول بها في ثقافتهم التنظيمية «يسع الفرد ما لا يسع الجماعة».

٨- على الجانب السلفي فإنه نتيجة تصنيف منهج الإخوان عند كثير من التيارات السلفية بوصفه منهجًا مخالفًا لأحكام الشرع ومتجاوزًا لثوابت دينية، فقد أصبحت مجرد فكرة التقارب مع الإخوان «تهمة» يجب المسارعة بنفيها، ويوجد على الساحة السلفية تيارات تنظر إلى الإخوان نظرة معتدلة منصفة؛ تثبت إيجابياتهم وسلبياتهم على السواء، ولكنها في النهاية لا تعبِّر عن مجمل التيار السلفي الذي لا يزال في معظمه يفتقر إلى دوافع قوية لتحقيق التقارب مع جماعة الإخوان المسلمين.

أهمية تعميق ثقافة التقارب، والتي يمكن تضمينها بعض المفاهيم الواقعية، وذلك في محاولة لتجاوز عقبة عدم توفر الدوافع لتحقيق التقارب على الجانبين، **ومن أمثلة ذلك:**

١- معلومات إحصائية عن القوة المجتمعة للإخوان والسلفيين في المجتمعات الإسلامية، وعن جهود خصومهم في تعميق الهوة بينهم.

٢- توفر التكامل بين التيارين، وحاجتهما سويًا لتفعيل هذا التكامل على أرض الواقع، والذي يتمثل في جوانب كثيرة منها:

- قدرة السلفيين البالغة على الوصول إلى الرأي العام من خلال خطابهم ورموزهم الدينية، مقارنة بقدرة الإخوان على الوصول المباشر إلى آحاد الناس وتجمعاتهم ميدانيًا.

- غلبة الجانب العلمي على السلفيين مقارنة بغلبة الجانب الحركي على الإخوان.

(١) صلاح الدين حسن: «الفضائيات السلفية والإخوان.. تغلغل يثير قلقًا»، مرجع سابق.

معلومات إضافية

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

دعوة إصلاحية دينية سلفية تدعو إلى العودة إلى الكتاب والسنة، وتسير على خطى أهل السنة والجماعة، نهض بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب بادئًا من إقليم نجد في القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي، فارتبطت باسمه، وصار البعض يطلق عليها «الوهابية».

يُعَدّ الشيخ محمد بن عبد الوهاب أهمّ من انتقل بالتجديد الإسلامي، في العصر الحديث، من إطار التجديد الفردي والمشروع الفكري إلى إطار «الدعوة» التي اتخذت لها دولة تحميها وتقاتل في سبيل نشرها، الأمر الذي جعل لدعوته التأثير والاستمرارية، وهو ما لم تحظَ بهما دعوات تجديدية أخرى.

ولقد كان تجديد الشيخ ابن عبد الوهاب واجتهاده اختيارًا في إطار المذهب الحنبلي، واستدعاء لنصوص ومقولات أعلامه -وخاصة مؤسس المذهب الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١هـ =٧٨٠ - ٨٥٥م)، وشيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ = ١٢٦٣ -١٣٢٨م). وكان اجتهاد اختيارات في إطار المذهب، استدعى النصوص والمقولات التي تنقِّي عقيدة التوحيد مما ران عليها وشابها من مظاهر الشرك والبدع والخرافات، على النحو الذي ناسب بيئة نجد ومشكلاتها في ذلك التاريخ.

وليس لمحمد بن عبد الوهاب دعوة خاصة، بل هي دعوة الإسلام الحق، ومنهجه هو منهج الإسلام. يقول: «إني -ولله الحمد- متَّبع ولست بمبتدع، عقيدتي ودِيني الذي أدين به هو مذهب أهل السنة والجماعة الذي عليه أئمة المسلمين مثل الأئمة الأربعة وأتباعهم إلى يوم القيامة»

مؤلفاته:

ترك الشيخ محمد بن عبد الوهاب العديد من الكتب والرسائل التي عالج فيها المشكلات التي اهتمت بها دعوته التجديدية الإصلاحية، **منها**:

(كتاب التوحيد) و(كشف الشبهات) و(تفسير سورة الفاتحة) و(أصول الإيمان) و(تفسير شهادة أن لا إله إلا الله) و(معرفة العبد ربه ودينه ونبيه) و(المسائل التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية) - وفيها أكثر من مائة مسألة- و(فضل الإسلام) و(نصيحة المسلمين) و(معنى الكلمة الطيبة) و(الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) و(مجموعة خطب) و(مفيد المستفيد) و(رسالة في أن التقليد جائز لا واجب) و(كتاب الكبائر).

مصطلح الوهابية:

إطلاق اسم (الوهابية) على الدعوة الإصلاحية للشيخ محمد بن عبد الوهاب بدأ أولاً من الخصوم، وكانوا يطلقونه على سبيل التنفير واللمز والتعيير، ويزعمون أنه مذهب مبتدع في الإسلام أو مذهب خامس.

ولم يكن استعمال (الوهابية) مرضيًّا ولا شائعًا عند أصحاب هذه الحركة وأتباعهم، ولا عند سائر السلفيين أهل السنة والجماعة، وكان كثير من المنصفين من غيرهم والمحايدين يتفادون إطلاق هذه التسمية عليهم؛ لأنهم

يعلمون أن وصفهم بالوهابية كان في ابتدائه وصفًا عدوانيًا إنما يُقصد به التشويه والتنفير وحجب الحقيقة عن الآخرين، والحيلولة بين هذه الدعوة المباركة وبين بقية المسلمين من العوام والجهلة، وأتباع الفرق والطرق، بل وتضليل العلماء والمفكرين الذين لم يعرفوا حقيقة هذه الدعوة وواقعها.

ولقد صار لقب (الوهابية) وتسمية الحركة الإصلاحية السلفية الحديثة به هو السائد لدى الآخرين من الخصوم، وبعض الأتباع والمؤيدين المحايدين (تنزلاً). وهو الوصف الرائج عند الكثيرين من الكُتَّاب والمفكرين والمؤرخين والساسة، والمؤسسات العلمية، ووسائل الإعلام إلى يومنا هذا.

المصادر:

– د.محمد أمين فرشوخ، موسوعة «عباقرة الإسلام في العلم والفكر والأدب والقيادة»، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، الجزء الأول، ١٩٩٦م.

– د. محمد عمارة، موسوعة أعلام الفكر الإسلامي، وزارة الأوقاف المصرية – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.

– د. ناصر عبد الكريم العقل، إسلامية لا وهابية، وهو ملخص عن كتاب بعنوان (دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب – حقيقتها ورد الشبهات حولها) مقدم إلى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.

– موسوعة الفرق والمذاهب في العالم الإسلامي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية التابع لوزارة الأوقاف المصرية، ٢٠٠٧م.

* * *

تأسيس جماعة الإخوان المسلمين في مصر:

نشأت جماعة الإخوان المسلمين في مصر عام ١٩٢٨م، على يد الشيخ «حسن البنا» الذي كان يعمل مدرِّسًا في مدينة الإسماعيلية بعد تخرجه في «دار العلوم»، وبقي في هذه الوظيفة إلى أن استقال منها عام ١٩٤٦م ليتفرغ للعمل في جماعة الإخوان المسلمين.

وكان البنا قد انخرط في العمل الوطني في وقت مبكر من خلال التظاهر والاحتجاج، وشارك في إنشاء عدد من الجمعيات التي تدعو إلى الفضيلة والأخلاق، وتحارب المنكرات إلى أن أسس جمعية الشبان المسلمين عام ١٩٢٧م، وخلص منها إلى تأسيس جماعة الإخوان المسلمين في مدينة الإسماعيلية في مارس ١٩٢٨م، وأتبعها لاحقًا بقسم «الأخوات المسلمات» (٢٦ أبريل ١٩٣٣م).

– يعتبر مؤرخو الحركة ومنظروها، وبعض المراقبين، أن دعوة الإخوان كانت رد فعل عملي لسقوط الخلافة الإسلامية العثمانية رسميًا على يد كمال أتاتورك في تركيا عام ١٩٢٤م، وكذلك كانت رد فعل على حالة التفسخ والتغريب التي انتشرت في المجتمع المصري في ظل وجود الاستعمار البريطاني في ذلك الوقت.

– كان منهج عمل الإخوان دعويًا إصلاحيًا مستمدًا من امتدادات الفكر الإصلاحي والدعوي الذي اكتسبه

الشـــيخ البنا من ملازمته للشيخ محمد رشيد رضا -الذي عاصره البنا لفترة قصيرة، وكان له معه مراسلات- والشيخ محب الدين الخطيب، ومن تأثير الصوفية التي لازمها في نشأته، وكذلك التعليم المدني والشرعي الذي تلقاه في المدارس وفي دار العلوم، إضافة إلى خبرته وآرائه.

- ظلت دعوة الإخوان المسلمين بعيدة عن السياسة حتى عام ١٩٣٧م؛ إذ بدأت العمل لصالح القضية الفلسطينية بالتنســـيق مع الشيخ أمين الحسيني رئيس المجلس الإســـلامي الفلسطيني، ثم خاضت الجماعة غمار السياسة المحلية في مصر.

- تكونت أول هيئة تأسيسية للحركة عام ١٩٤١م من مائة عضو اختارهم الشيخ حسن البنا بنفسه.

- بدأت الجماعة في أوائل الأربعينيات من القرن الماضي بالانتشـــار خارج مصر، وكان دعاتها يســـافرون إلى الأقطار العربية، يلتقون العلماء والوجهاء، ويلقون المحاضرات، ويؤسسون لتشكيلات الإخوان في تلك الأقطار.

- شارك الإخوان في حرب فلسطين ١٩٤٨م؛ حيث دخلوا بقوات خاصة بهم، وقد سجل ذلك بالتفصيل كامل الشريف -من قادة الإخوان المتطوعين ووزير أردني سابق- في كتابه: «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين».

- في مســـاء الأربعاء ٨ ديســـمبر ١٩٤٨م أعلن رئيس الوزراء المصري محمود فهمي النقراشـــي حل جماعة الإخوان المسلمين، ومصادرة أموالها، واعتقال معظم أعضائها.

- في ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨م اغتيل النقراشي، واتُّهم الإخوان بقتله، وهتف أنصار النقراشي في جنازته بأن رأس النقراشي برأس البنا، وفي ١٢ فبراير ١٩٤٩م أُطلق النار على حسن البنا أمام جمعية الشبان المسلمين.

اســـتمرت الجماعة بغير اختيار لمرشـــد جديد حتى عام ١٩٥١؛ حيث تم اختيار المستشـــار حسن الهضيبي، واســـتمرت هذه المرحلة حتى عام ١٩٥٤؛ حيث الصدام التاريخي الشهير بين النظام الناصري الجديد والإخوان الذي أدى إلى اضطهاد الجماعة، وملاحقة أعضائها ومؤيديها، وإعدام قادتها، واستمرت فترة الصدام مع النظام الناصري، وبقيت الجماعة تعمل بشكل سرِّي حتى وفاة الرئيس الأسبق جمال عبد الناصر عام ١٩٧٠م.

بدأ الإخوان عهدًا جديدًا مع الرئيس أنور السادات؛ حيث بدأ بالإفراج عن الإخوان منذ عام ١٩٧١م حتى أفرج عن الجميع في عام ١٩٧٥م.

المصادر:

- الموســـوعة الميســـرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، من إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي (نسخة إلكترونية).

- الإخوان المسلمون.. إلى أين؟ الجزيرة نت، ٢٠٠٤/١٠/٣م على الرابط:

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/305785D9-7ED2-412B-B30E-F95F703EEB06.htm

- إبراهيـــم غرايبة، جماعة الإخوان المســـلمين في الأردن ١٩٤٦- ١٩٩٦م، مركز الأردن الجديد للدراســـات، ١٩٩٧م.